فى اللهب ولا تحترق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أفى الممكن هذا ؟

لعوب حَسَنة الدَّلّ ، مفاكِهة مداعِبة ، تحيي ليلها راقصة مغنية ؛ حتى اذا اعتدل الليل ليمضى ، وانتبه الفجر ليقبل — انكفأت الى دارها فَنَضت وَشْيها ، وخرجت من زينتها ، وخلعت روحاً ولبست روحاً ، وقالت : اللهم إليك ، ولبَّيك اللهم لبَّيك . ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها ، وقامت بين يدى ربها تصلى . . . !

* * *

هى حسناء فاتنة ، لو سطع نور القمر من شىء فى الأرض لسطع من وجهها . وما تراها فى يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت ، حتى لتظن أن الشمس تزيد وجهها فى كل نهار شعاعةً ساحرة ، وأن كل فجر يترك لها فى الصبح بريقاً ونَضرة من قطرات الندى .

وتحسب أن لها دماً يَطْعم فيما يَطعم أنوار الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسماتِ الليل .

وإذا كانت فى وَشْيها وتطاريفها وأصباغها وحلاها لم تجدها امرأة ، ولكن جمرة فى صورة امرأة ؛ فلها نور وبَصيص ولهب ، وفيها طبيعة الاحراق . . . . إن الذى وضع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهبة — وضع على جمالها خاتَمَ قرص الشمس

فاذا رأيتها بتلك الزينة فى رقصها وتَثنِّيها — قلتَ : هذه روضة مُفْتَنَّة اشتهت أن تكون امرأة فكانت ، وهذا الرقص هو فنُّ النسيم على أعضائها .

وهى متى نفذتْ الى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت فى نفسك الربيعَ ساعة أو بعض ساعة .

وتنسجم أنغام الموسيقى فى رشاقتها نغْمة الى حركة ؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامتة تُسمع وتُرى فى وقت معاً وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى ، لتخرج لك بظرفها صراحةَ الفن من إبهامين كلاهما يعاون الآخر .

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواقَ الحياة وأفراحها وأحزانَها ، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسمِ المرأة .

وكأن الليل والنهار فى قلبها ، فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة .

وهى إلى القِصر ، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها .

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فاذا هى رابية كأن بعضها كان مختبئاً فى بعض .

ويخيل إليك أحياناً فى فن من فنون رقصها أن جسمها يتثاءب برعشة من الطرب ، فاذا جسمك يهتزّ بجواب هذه الرّعشة لا يملك إلا أن يتثاءب . . . .

ويُجنّ رقصها أحياناً ، ولكن لتحقّق بجنونِ الحركة أن العقل الموسيقىّ يُصرّف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفن فى تأوُّدِها ولفتها ونظرتها وابتسامها وضحكها — ففى وجهها دائماً علامة وقار عابسة تقول للناس : افهمونى .

* * *

ولما رأيتها شهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها مُتحرّزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن ، يبسط الأمنَ والسلامة على ظاهرها ؛ وأن لها عيناً عذراء لا تحاول التعبير ، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما ؛ وأن قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها ، فيكون ما فى جمالها شيئاً غير ما فى النساء — شيئاً عبقرياً بالغَ القوة ، يكفّ الدوافى ويحسم الخواطر ، ويُرغم الاعجاب أن يكون ذهولاً وحيرة ، ويُكرِه الحبَّ أن يرجع مهابة واحتشاماً .

والرواية كلها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهها إلا الشاشة البيضاء لهذه «السيما» ، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب أو الفكر ؟

وعندى أن المرأة اذا كان لها رأى دينى ترجع اليه ، وكان أمرها مجتمعاً فى هذا الرأى ، وكانت أخلاقها محشودة له ، متحفلة به — فتلك هى الياقوتة التى ترمى فى اللهب ولا تحترق ، وتظل

مع كل تجربة على أول مُجاهدَتِها ، إذ يكون لها فى طبيعة تركيبها الياقوتىّ ما تهزم به طبيعة التركيب النارىّ .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتيـة ، هى فطرتها الدينية التى فيها ؛ إن بقيتْ لها هذه بقيت معها تلك ، ولـكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعة معاً ، فيجعل الله عِقابها فى عملها ، ويَكلها الى نفسها ؛ فاذا هى مقبلة على أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية إن كانت عالة ، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة . وما بُدَّ أن تَستسرَّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة الى الفساد ؛ ويرجع ضميرها الخالى محاولاً أن يمتلئ من ظاهرها ، بعـد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها ؛ وتصبح المرأة بعد ذلك فى حكم أسباب حياتها ، مُصرَّفة بهذه الأسباب ، خاضعة لما يُصرّفها ؛ ويذهب الدّين وينزل فى مكانه الشيطان ؛ ويزول الاستقرار ويحل فى محله الاضطراب ؛ وتنطفئ الأشعة التى كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم ، فاذا الغيوم ملتفّ بعضها على بعض ؛ وتخذل القوة السامية التى كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال ، فاذا المرأة من الضعف الى تهافت ، تغلبها الكلمة الرقيقة ، وتَغترُّها الحيلةُ الواهنة ، وتوافق انخداعها كلُّ رغبة مزيَّنة ، ويستذلها طمعها قبل أن يستذلها الطامع فيها . ولتكن بعـد ذلك مَن هى كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفة ، فلو أنها امرأة من « الاسمنت المسلح » لتفتتت بالطبيعة التى فى داخلها ، ما دامت الطبيعة متوجهة الى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تهدِم وأن تنهدم .

لقد رقّ الدين فى نسائنا ورجالنا . فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمة « حرام ، وحلال » قد تحولت عنـد أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلت عنـد كثير من الشبان والفتيات الى « معاقب عليـه قانوناً ، ومباح قانوناً ... » ثم انحطت آخراً عند السواد والدهماء إلى « ممكن ، وغير ممكن ... »

***

قالت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت فى نفسى أن الصلاة لاتصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكر نفسه طاهراً يصلّى لله مع الجسم ، فان كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرءُ من روح الصلاة إلا بعدا . وقَرَّ هذا فى نفسى واعتدته ، إذ كنت أتعبّد على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، فأصحّح الفكر ، وأستحضر النية فى قلبى ، وأنحصر بكلّى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرج منها ثم يعود اليها ؛ ونشأت فيه القوة المصمِّمة التى تجعله قادراً على أن ينصرف بى عما يفسد روح الصلاة فى نفسى ، وهى سر الدين وعماده .

ويا لها حكمةً أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً إما متصلة أو مهيَّأة لتتصل . ولن يَعجز أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملك نفسه بضع ساعات ، متى هو أقرّ اليقين فى نفسه ، أنه متوجه بعدها الى ربه ، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو اذا ملك نفسه الى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها فى عمرٍ على صيغة واحدة لا يتبدّل ولا يتغيّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملُ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيت أبى يصلى ، وكذلك رأيت أمى ، فلا تكاد تُلِمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى فأكره أن أستلئم اليهما فأكون الفاسدة وهما الصالحان ، واللئيمة وهما الكريمان ؛ فدمى نفسه ببركة الدين يحرسنى كما ترى .

قلت : فهذا الرقص . . . ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِى علىّ أن أكون راقصة ، وأن ألتمس العيش من أسهل ثلاث طرق ، وألينها وأبعدها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهِرها . أريد : الرقص ، أو الخدمة فى بيت ، أو العمل فى السوق . وأنا مُطيقة لحريتى فى الأولى ، ولـكنى لن أملكها فى الأخيرتين مادام عَلَىّ هذا الميسم من الحسن ؛ وكم من امرأة متحجِّبة وهى عارية الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجبة . إن كنت لاتعلم هذا فاعلمه ، وليس السؤالُ ماسألت ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ما ترى هو فى ثيابى فقط ، أو هو فى ثيابى ونفسى ؟

ها أنت ذا تُغَلْغِل نظرتك فى عينىّ إلى المعانى البعيدة ، فهل ترى عينى راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينَىْ راقصة ، ولكنْ عينَى مجاهد فى سبيل الله . . ! فاستضحكتْ وقالت : بل قل : عينَى مجاهد يهزم كل يوم شيطاناً أو شياطين .

إنى لأرقص وأغنّى ، ولكن أتدرى ما الذى يُحْرِزُنى من العاقبة ، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريض النفس ؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ، ولا بروح المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيعين اليها ؛ فهيهات بَعْد ذلك هيهات ! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملا فنياً على ملأٍ من الأساتذة المتحنين ، والنظّارة يحكمون لها أو عليها ؛ نهى فى فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا . . .

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعهم يخطىء فى طريقة تناوله السيّال الكهربائى المنبعث من نفسى ، ولكن لا عَلَىّ ، فهذا السيال نفسه ينبعث مثله من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لانسان فيها ذكريات قديمة ، أو نبّهت ببعض معانيها بعضَ معانيه .

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ اضطرب وجوهاً من الاضطراب فى جذب الناس ودفعهم معاً . واذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها سلمت من أن يغلبها الرجل على فضيلتها . وفى النساء حواس مغناطيسية كاشفة منبّهة خلقت فيهن كالوقاية الطبيعية ، لتسلم بها المرأة من أن تُخطِرَ عفتَها لغرض ، أو تُغرّر بنفسها لانسان ؛ فانك لتكلم المرأة ، وتزيّن لها ما تزيّن ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفّك يَشِفُّ ويفضح ، لا فى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يُبطل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعها المادىّ فى المال والمتاع والزينة ؛ فان هذا الطمع هو القوة التى يغلب بها الرجلُ المرأة ، فبنفسها غلبَها : واذا تبذّلَ طمعُ امرأة فى رجل فهى مومس ، وإن كانت عذراء فى خدرها .

ويا عجبا ! إن وجود الطبيعة فى النفس غير الشعور بها ؛ فليس يشعر المرأةَ بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة . فكأن الحكمة قد وَقتها وعرّضتها فى وقت معا ، لتكون هى الواقيةَ أو المخطِرةَ لنفسها ، فبعملها تجزى ، ومن عملها ما تضحك وتبكى .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمع فى شىء من أشياء الناس ، وسَخوْت عن كل مافى أيديهم ؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى ، وحسبى أن يبقى لعينى قلبى ضوؤها المبصر . وأنا أعتمد على شهامة الرجل ، فان لم أجدها علمتُ أنى بازاء حيوان انسانى ، فأتحذّره حذرى من مصيبة مقبلة . واذا جاءنى وقح خلق الله وجهه الحسن مسبةً له ، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح ، ذكرت أنى بعد ساعة أو ساعات أقوم الى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعدا وإن كان بازائى ، فأغلظ له وأتسخط ، وأظهر الغضب وأسفعه صفعتى .

قلت : وما صفعتك ؟

قالت : إنها صفعة لا تضرب الوجه ولكن تخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة : أما تعرف ياسيدى أنى أصلى وأقول « الله أكبر » فهل أنت أكبر . . . ؟ أأقيم لك البرهان على صَغارك وحقارتك ، أأنادى الشرطى . . . ؟ !

* * *

تختنق بالرقص وتنتعش بالصلاة ، وفى كل يوم تختنق وتنتعش .

ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى المترادف شرعاً : رَقصتْ وصلت . . . ؟

مصطفى صادق الرافعى

فوست المصرية

ظهرت حديثاً رواية :

ايزيس

لمؤلفها محمد زكى صالح

تطلب من مكتبة الهلال وهندية وديمر والمكاتب الشهيرة